مجلة الآداب، م٢٦ ، ع٣ ، ص ص ٧٣- ٨٧ ، جامعة الملك سعود، الرياض (٢٠١٤م/١٤٣٥هـ)

مظاهر من المفارقة الممتدة في القرآن الكريم
قصة موسى عليه السلام أنموذجاً

عادل حسني يوسف

أستاذ مشارك بقسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية

قدم للنشر في ١٤٣٥/١/٢٢ وقبل في ١٤٣٥/٣/١١

الكلمات المفتاحية: مظاهر، المفارقة، الممتدة، الصور، الوظائف.

ملخص البحث: يشتمل البحث على مقدمة تبين موضع العناية من البحث ومحل النظر فيه، ثم تمهيد يبين جوهر المفارقة ويبرز أهميتها. وبعد التمهيد يبدأ عرض صور المفارقة، من قصة (موسى) بدءاً من مشهد ولادته، ثم لقائه مع الخضر وصحبته الطويلة والشائكة، ثم تأتي صورة ثالثة من صور المفارقة، وفيها إلقاؤه للألواح ولقاؤه العجيب بأخيه، وفي آخر صورة للمفارقة، يجبه الله سبحانه موسى، فيسأله عن سبب استعجاله وتركه قومه، وإسراعه إلى لقائه، ثم يتبع ذلك الحدث الكبير، وهو فتنة قوم موسى.

وفي كل صورة من الصور المتقدمة، يكشف البحث - بالتدقيق ما أمكن- عن كل مظهر من مظاهر المفارقة، ليتبين لنا أن المفارقة أسلوب من أساليب الكشف عن المعاني والتواصل مع القارئ والتأثير فيه.

المقدمة:

ليس الغرض من هذا البحث، الاشتغال بذكر أنواع المفارقة وتمييز بعضها عن بعض، أو بيان تطورها وضبط تعريفاتها. فقد نهض بذلك من كفانا المؤونة (سليمان، ٢٠٠٩: ١٢٩ وما بعد)، إنما غرضا النظر في الجانب التطبيقي منها، لنرى كيف تتحقق المفارقة، وتتجلى في قصة من قصص القرآن.

والعناية بالجانب التطبيقي – على كل حال- يعود فيؤثر في تطوير التعريفات، وترميم ما فيها من نقص وحذف، وما تشتمل عليها من مفاهيم غير صائبة. فالتعريفات والمفاهيم إنما توزن بالنصوص، وبذلك يستقيم أمرها، وتعتدل مسيرتها.

لكن شيئًا آخر، قد يحرف هذه المسيرة قليلاً عن استوائها واستقامتها، كالعناية بالجانب النظري أكثر من الجانب التطبيقي، أو كالاهتمام بنوع من المفارقة دون آخر، أو الانصراف إلى أقسام دون أخرى.

ولقد حظيت اللفظة المفردة والجملة الواحدة، وما يقرب من هذه الدائرة الضيقة، بعناية واضحة ممن يهتمون بالمفارقة. وفي حقل الدراسات القرآنية، خصص الدكتور محمد العبد كتاباً مستقلاً، يدرس فيه المفارقة في

القرآن الكريم. وهي دراسة قيمة، لكنها لم تتجاوز كثيراً العناية (بالمفارقة اللفظية). وهذه مجالها الكلمة وما حولها، أو الجملة الواحدة وما يلوذ بها.

أما مفارقة الموقف في (الحدث والسياق)، حيث يتسع المجال ويطول الكلام، فإنها لم تنل العناية الكافية.

وأما (المفارقة الممتدة)، حيث يتسع المجال أكثر فأكثر، ليشمل مشهدًا متكاملاً وقصة متراحبة (ينظر: كامل، ٢٠١٠، ٣٤) فإن محمد العبد لم يعرض لها في كتابه، ولا رأينا غيره قد ألم بذلك أو حاول معالجته.

ومن هنا عقدت النية على النهوض بهذا البحث، راجيًا أن يكون لبنة تضاف إلى لبنات تقدمت، وإضاءة لجانب تطبيقي لم يحظ بالعناية، وسبيلاً إضافية، على طريق الكشف عن المعاني والمضامين، بالنظر من زاوية، ربما لم ينظر منها إلى آيات القرآن الكريم.

التمهيد

ظاهر أن المفارقة مبنية على التضاد(ينظر: المفارقة والأدب، ١٩٩٩: ص ١٧، وكامل، ٢٠١٠: ١٠٦)، ومؤسسة على أن ما يجري لا يتوقع القارئ جريانه، وأن ما يحدث كان ينبغي أن يحدث ما يناقضه ويعاكسه؛ لأن "المفارقة أن يُسرق السارق أو يغرق مدرب السباحة"(ميوبك، د.ت: ص ٦٤)، تفسير ذلك "أن هذا الأمر غير محتمل الحدوث، أي الإشارة إلى الفرق، بين ما ينتظر حدوثه، وبين ما يحدث فعلاً، وكلما ازداد الفرق كبرت المفارقة "(ميوبك، د.ت: ص ٦٤) والمفارقة ليست زينة شكلية للكلام، ولا هي تحلية في ظاهر القول، بل "إننا نستطيع القول إنه لا يمكن أن توجد حياة بشرية أصيلة بدون مفارقة"(المفارقة والأدب، ١٩٩٩: ص ٣٥).

إذن، إن وجود المفارقة في الأدب مبني على وجودها في الحياة، وارتباطها به يعتمد على مدى ارتباطها بحياة الناس. وكما يقول كيركيكارد: "قد يدعي المرء أن ليس من حياة بشرية أصيلة ممكنة من دون مفارقة"[١].

صور من المفارقة في قصة موسى عليه السلام:

إن اختيار صور من قصة موسى، صلوات الله عليه إقرار بأن قصته في القرآن ليست كلها مبنية على المفارقة، لكنها في الوقت نفسه - وكما يتبين بالمتابعة والتأمل- أكثر قصة يتوافر فيها هذا الفن.

وموضع التميز في هذه القصة، أن المفارقة فيها، ليست تلك التي تقوم على التناقض بين موسى وفرعون فحسب، بل إن كثيراً من مظاهر المفارقة فيها، يقوم بين موسى وشخصيات أخرى. وأكثر من هذا، إن المفارقة كثيراً ما تكون بين موسى والمؤمنين. وفي القصة تميز من جهة أخرى يتصل بالمفارقة اتصالاً وثيقاً، وهي أن مظاهر المفارقة فيها وافرة فيها منذ اللحظة الأولى، أو قل من لحظة ولادة موسى عليه السلام.

الصورة الأولى من صور المفارقة

ونختارها من سورة القصص، وقصة موسى فيها طويلة جداً، لكننا نقف منها عند مشهد ولادته وملابسات رضاعته.

١- يقول أناتول فرانس: إن عالمًا بلا مفارقة يشبه غابة بلا طيور. وينقل توماس مان عن غوته قوله: إن المفارقة هي ذرة الملح التي تجعل الطعام مقبول المذاق" (المفارقة والأدب، ص٣٤).

يقول تعالى: (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنّا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين. فالتقطه ءال فرعون ليكون لهم عدواً وحزنًا إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين. وقالت امرأت فرعون قُرت عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً ولا هم يشعرون. وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين. وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون. وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون. فرددناه إلى أمه كي تقرعينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكنّ أكثرهم لا يعلمون) [القصص ٦- ١٣]. هذا مقطع متكامل من السورة، وفيه مفارقات عديدة، لا تنتهي الأولى حتى تبدأ الأخرى، وقبل أن تنقضي إحداها تشتبك معها التالية.وما أن تبدأ القصة، حتى يجد القارئ كيف تتسع الهوة بين ما ينتظر حدوثه وما يحدث فعلاً، بين ما يرقب حصوله وما يحصل في الواقع مما يخالفه.

المفارقة الأولى: ما ينتظره كل قارئ ويألف حدوثه، أن الأم تحفظ ولدها وتفديه بروحها وتبعده عن كل مظهر من مظاهر الخطر، وتحاول سد كل باب من أبوابه. لكن أم موسى هنا تفارق – من حيث الظاهر- هذا المعهود، وتخرج عليه خروجاً صارخاً، وذلك حين ترمي ولدها في البحر.

المفارقة الثانية: وفيها أنّ كل ما فعلته أم موسى، كانت ترجو منه أن يبقي ولدها بعيداً عن فرعون، لكن ما فعلته في الواقع هو الذي أوصل ولدها إلى داخل بيت فرعون.

ثم إنها أرادت إبقاء ولدها بعيدًا عن فرعون، يقيناً منها أن فرعون سيقتله، لكن الذي جرى، بيّن أن فرعون هو الذي حفظه ورعاه. وبهذا يكون التضاد بين الطرفين كبيراً جداً، ومن هنا تعلو درجة التوتر في المفارقة إلى حد بعيد.

المفارقة الثالثة: وفيها، أن فرعون كان يسعى أن يبعد موسى عن مملكته كل الإبعاد، بأية وسيلة وبكل سبيل، بتلك المجزرة الكبيرة، بقتل كل الأطفال من بني إسرائيل. لعل القتل يصيب موسى من بينهم، فيَبعُد عن فرعون بعداً لا رجعة معه، ولا اقتراب له فيه. لكن انتهى الأمر إلى أن يكون موسى أقرب الناس إلى فرعون.

وكان يحاول بالمهلكة التي نصبها للطفل، وقاية نفسه وصون مملكته، فكان المآل، أنه حفظ وصان الطفل الذي كان هلاكه وفناء ملكه على يديه. والتوتر في هذه المفارقة أيضاً عال جداً، وذلك لمدى البعد بين الغايتين وهول التناقض بين الطرفين.

المفارقة الرابعة: وفيها يتحول فرعون الحذر، الذي يعاقب بالشبهة ويقتل على الظن، فرعون الذي بلغ من حذره وحيطته، أنه كان يرسل عيونه وجواسيسه، ليتحسسوا رائحة المواليد الجدد من بني إسرائيل، فيعدون الأيام على الحوامل من نسائهم، ويأخذون الذكور فيقتلونهم، يتحول هذا الحذر هنا إلى رجل تقتل فيه الغفلة كل حواسه، وتسد عليه منافذ الاهتداء إلى عدوه. يقول البقاعي في قراءته لقوله تعالى (فرددناه إلى أمه) من هذه القصة: "أي مع هذا الظاهر في الكشف

لسره الموجب للريبة في أمره، ومع ما تقدم من القرائن التي تقطع بها بأنه من بني إسرائيل، منها إلقاؤه في البحر على تلك الصفة، ومنها أن المدلول عليها لإرضاعه من بني إسرائيل، ومنها أنه قبل ثديها دون غيرها من القبط وغيرهم "(ينظر: البقاعي، ١٩٩٥: ٥/ ٤٦٩). فالوليد الذي وعد به، هو بين يديه، ومن يبحث عنه في كل مكان بعيد، هو آمن ومستلق بين ذراعيه.

ويزيد من هول المفارقة أن أخت موسى جاءت إلى بيت فرعون، وفي تصرفاتها وكلامها عن الطفل، والعناية بشأنه، فيه كل الدلائل البينة، على أن هذا الطفل من بني إسرائيل. وما يحصل هنا- بعد كل هذه الدلائل البينات- من فرعون لا ينتظره المراقب، ولا يتصور المتلقي حصوله. فقد عمي عن كل هذا، وتحول الحذر إلى مغفل عجيب، ليس لديه في الدليل الواضح، أثر لأي دليل، ولا له في البرهان الساطع، بقية برهان.

المفارقة الخامسة: لا شك أن أم موسى، كانت تخشى أشد خشية، أن يقع ولدها في يد فرعون، فلما أيقنت أنه وصل إلى بيته، كان أخشى ما تخشاه، أن يعرف فرعون، أن الطفل فرد من بني إسرائيل. وهذا يقتضي منها، ألا تقوم بأي عمل يدل على أصل الطفل. وقد عملت أخت موسى بهذا المقتضى، في بداية مسيرة الصندوق الذي وضع فيه أخوها، إذ (بصرت به عن جنب) أي: "عن بعد...وقيل عن تجنب منها وتباعد"(الواحدي، ١٤٣٠: ١٧/ ٣٤٦)، وتأمل كم في عبارة: (تجنب وتباعد) من الإحساس بموجب الحذر، والأخذ بالحيطة. وقد راقبته بعد أن ألقي في البحر لتنظر إلى أين يصير.

لكن أخت موسى لم تملك بعد ذلك نفسها، إذ كل ما قامت به، كان حرياً أن يكشف أمر أخيها، فيؤدي ذلك إلى قتله. فمجرد اقترابها من بيت فرعون، قد يؤدي إلى انكشاف أمر الطفل. وهي لم تكتف بالاقتراب، بل اقتحمت على آل فرعون البيت، وليس هذا فحسب، بل اهتمت بشأن الطفل، وتحدثت في أمره، وأظهرت غاية الرفق بحاله، وقالت إنها تعرف من يكفله ويرضعه، وكان معروفاً أن الرضاعة صنعة لنساء بني إسرائيل(ينظر: ابن عطية، ١٩٩٣: ٤/ ٢٧٩).

كان المتوقع من أخت موسى، أن تبتعد عن بيت فرعون كل البعد، لكنها خالفت ذلك وفعلت ما يضاده، فاقتربت من بيت فرعون بل دخلت وسطه. وهي إذ دخلت كان المتوقع أن تكون حذرة، ولا تتكلم بشأن الطفل، لكنها خالفت هذا المتوقع، وفعلت ما يعاكسه ويخالفه، فتكلمت في أخص خصائصه.

إذن وقع الذي ما كان ينبغي أن يقع، وحصل عكس الذي يتوقع القارئ حصوله، فكل ما حصل، يؤدي إلى كشف حقيقته أمر الطفل ليقتل، لكن مع ظهور أمره كل هذا الظهور، وعلى خلاف ما يتصور، بقي أمره خافيًا، فسلمت حياته ونجا الطفل. ويبدو أن هذا هو ترجمة ما جاء في سورة أخرى، في شأن موسى، حيث يقول له ربه: "ولتصنع على عيني" [طه ٣٩]، فمن كان (يُصنع على عين الله)، فإن عين الله لا تنام، بل تنام عنه كل عين أخرى، فلا تستطيع أذيته.

وظيفة المفارقة: فهذه قصة طفل في غاية العجز، وما أحاط به، كان أقله حرياً بأن يوصله إلى هلاكه، ويؤدي إلى مقتله. ومع كل ذلك بقي في حفظ وأمن. هذه المفارقة

الكبيرة - ولا شك- تظهر لقوم موسى، مواضع العجب بل الإعجاز فيه، منذ طفولته، ويهيئ العقول فيهم إلى الإيمان به، يوم يقوم داعيًا إلى رسالته.

علاقة المفارقة باسم سورة القصص

السورة هي سورة (القصص)، وهي جمع قصة، لكن هذه السورة وردت فيها قصة موسى فحسب. صحيح أنه قد ذكر فيها شعيب وابنتاه، لكنهم ذكروا، لما تعلق ذكرهم بمسيرة موسى، وكذلك ينظر إلى فرعون، فهو يذكر بذكره، لأنه جزء من قصته. وكذلك كان حال هامان، أما ترى فرعون قد قال له "فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً لعلي أطلع إلى إله موسى وإني لأظنه من الكاذبين" [القصص ٣٨]. فالقصة إذن قصة واحدة. فلماذا جاء اسم السورة بصيغة الجمع.

ومراعاة لهذا الاعتبار، فإن سورة (الشعراء)، كان يمكن أن تسمى سورة (القصص)، لأنه ذكر فيها قصص أكثر الأنبياء، وفصلت أخبار أممهم، وكذلك سورة (النمل)، وهما السورتان السابقتان لسورة (القصص). فكيف تتوجه تسمية هذه السورة، بسورة القصص، وهي كما قلنا، قد بنيت على قصة موسى عليه السلام وحده.

ولعل سر التسمية، يكمن في هذه المفارقات العجيبة، التي تمر بالقارئ، المحب لموسى، المشفق عليه وعلى أمه، الذي يرقب الأهوال التي تمر بهما، فيكاد كل هول يقطع أنفاسه، وكل مفارقة تقطع نياط قلبه، خوفاً من أن يكتشف أمر الطفل فيقتل. وهل هناك خوف أشد من أن يلقى طفل في البحر؟ بل هل هناك خوف أشد من أن تصبح في يد فرعون، وأنت عدو فرعون. ومن هنا، فإن كل مفارقة تصلح أن تكون قصة برأسها، وعندها تصلح أن تكون السورة سورة (القصص).

الصورة الثانية من المفارقة

وردت قصة موسى أيضاً في سورة الكهف، وفي قصته من هذه السورة مفارقات كثيرة تتوالى. وتبدأ المفارقات، من لحظة لقاء موسى مع (الخضر)، الرجل الصالح، الذي أمره ربه أن يلتقي به، ليتعلم منه.

يقول تعالى: "فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً. قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما عُلمت رشداً. قال إنك لن تستطيع معي صبراً. وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً. قال ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً. قال فإن اتبعتني فلا تسئلني عن شيءٍ حتى أُحدثَ لك منه ذكراً. فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها قال أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئتَ شيئا إمراً. قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً. قال لا تؤاخذني بما نسيتُ ولا ترهقني من أمري عُسراً. فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً فقتله قال أقتلت نفساً زكية بغير نفسٍ لقد جئت شيئاً نُكرا. قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً. قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تُصاحبني قد بلغتَ من لدني عذراً. فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يُضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقضّ فأقامه قال لو شئت لاتخذت عليه أجراً. قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً. أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردتُ أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً. وأمّا الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً. فأردنا أن

يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رُحماً. وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحاً فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمري ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً"[الكهف ٦٥- ٨٢].

المفارقة الأولى: يسبق إلى ذهن كل مؤمن أن الرسل هم أعلم الناس. لكن أول ما يلقانا من القصة هنا، أن موسى جاء ليتعلم. والنبي هو معلم الناس، و"يجب أن يكون أعلم أهل زمانه، المرجوع إليه في أبواب الدين"(الزمخشري،٢٠٠٣ :٦٦٧/١)، لكن هنا يقول موسى للرجل الصالح: (هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشدا).

المفارقة الثانية: كما يسبق إلى الذهن، أن الأنبياء أكثر الناس تحلياً بالصبر، ولاسيما أولو العزم منهم، وموسى عليه السلام أحدهم، وما يخالف هذا المعهود والمنتظر، أن الرجل الصالح العالم، يقول لموسى: (إنك لن تستطيع معي صبرا)، وفي هذا - كما يقول الزمخشري- "نفي استطاعة الصبر على وجه التأكيد" (الزمخشري، :٦٦٧/١).

المفارقة الثالثة: وهذه مفارقة عامة وكبيرة، تتعلق بما فعله (الخضر)، ذلك الرجل الصالح، الذي آتاه الله العلم، ووهبه الرحمة (وآتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما). هذا الرجل يُقدِم على أفعال لا يتوقعها المتلقي منه، فيقتل طفلاً، والمنتظر منه فعل كل ما يوافق الرقة والرحمة. لكنه يفعل أفعالاً تضاد - من حيث الظاهر- صفتيه في (الرحمة والعلم). أين الرحمة وأين العلم ظاهرياً، ممن يخرق السفينة في البحر، ويعرّض من فيها - وفيهم هو نفسه- لخطر الهلاك بالغرق؟ وهذه عجائب كبيرة، لا ينتظر القارئ أن تجري على يد هذا الرجل الصالح، بل ينتظر منه ما يناقضها.

يؤيد جهة التعجيب فيها، ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم - لما قرأ قوله تعالى على لسان موسى: (قد بلغت من لدني عذراً)- أنه قال: "استحيا نبي الله موسى عندها، ولو صبر لرأى ألفاً من العجائب"(الترمذي، ١٩٨٨: ٤٦٣/٥) (مسلم، 1955: ١٨٥١/٤) (الواحدي، ١٤٣٠ :٩٣/١٤).

المفارقة الرابعة: التكرار في نسيان موسى وعده بالصبر، وعدم التدخل والاعتراض: وهذا مالا يتوقعه المتلقي البتة، ومدى المفارقة هنا كبير جداً. فإذا كنا نجد لنسيانه في المرة الأولى عذراً أو تفسيراً ما، فإن ذلك قد يتعذر فيما بعد، ولاسيما و(الخضر) كأنه يتحداه بقوله (وكيف تصبر....).

وظيفة المفارقة:

نلمح هنا ثلاث وظائف:

١ -كأن إحدى وظائف المفارقة، إظهار عزيمة موسى وهي تتراجع، وإبراز ذاكرته وهي تنسى ما تعد به. وكذلك بيان أن علمه محدود. فكل ما جرى أمامه لم يعرف له تفسيراً، ولم يكن لديه علم به.

يقوي هذا التوجيه، ما يروى "أنه لما ظهر موسى على مصر مع بني إسرائيل واستقروا، أمره الله أن يُذكّر قومه النعمة، فقام فيهم خطيباً، فذكر نعمة الله، وقال: إن الله اصطفى نبيكم وكلمه، فقالوا له: قد علمنا هذا، فأي الناس أعلم؟ قال: أنا، فعتب الله عليه حين لم يرد العلم إلى الله"(أبو حيان، ٢٠١٠ : ١٣٦/٦).

وكأن السياق أراد إرشاده بهذا الاختبار، ما الذي ينبغي أن يقوله في مثل هذا الموقف، حيث ينبغي أن يعيد كل شيء إلى ربه وحده. يؤيد هذا ويؤكده، إظهار ضمير الربوبية وإعادته، في قوله تعالى، لما أمره بالذهاب إلى (الخضر): (آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً)، فهذه آية قصيرة، أعيد فيها ضمير ذي الجلالة عدة مرات. وقد استوجبه موقف موسى، لما أجاب قومه، بتلك الطريقة التي عتب الله عليه فيها.

٢ -ونلمح لهذه المفارقات من هذه الصورة، وظيفة أخرى، وهي أن تقابل وظيفة (الصورة الأولى)، من المفارقات التي في سورة القصص. بيان ذلك، أنها هناك كانت كأنها تبني في النفوس أسساً أولية وخفية، تهيئها للإيمان بموسى عليه السلام وبدعوته، إذا حان الوقت. أما في هذه السورة، فقد آمن قومه به، ومن هنا فإنه من المهم، إظهار الجانب البشري فيه أحياناً، لئلا تتعلق به النفوس تعلقاً شديداً، فيتراءى لها، أن تنسب إليه شيئا من القدسية أو صفات الربوبية. وخطر الانزلاق إلى هذا ممكن، والشرائع منه على حذر، لذلك فهي تُذكّر في مناسبات عديدة ببشرية الأنبياء، بخطاب مباشر أحياناً، أو غير مباشر أحياناً أخرى، كما مر قبل قليل، مما حصل لموسى عليه السلام، من مفارقة الصبر له، وظهور جانب الضعف البشري عليه.

وعدم ملاحظة بشرية الرسول مزلقة، قد ينتهي ببعضهم إلى تعظيمه، وربما يمنحه بعضهم بعض صفات الإله، لذلك يذّكر القرآن أحيانًا، ببشرية الأنبياء بطريقة غير مباشرة، كالذي حصل مع موسى عليه السلام، فيما تقدم من المفارقات.

وإذا ذكر القرآن ذلك بالطريقة المباشرة، فإنه يذكر في النبي، أخص صفات الإنسان، تلك التي تثبته في البشرية بأدل صفاتها، ليكون محالاً إخراجه منها، يقول تعالى: (ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام) [المائدة ٧٥]، و"من احتاج إلى الاغتذاء بالطعام وما يتبعه من الهضم والنفض، لم يكن إلا جسماً مركباً من عظم ولحم"(الخفاجي١٩٩٧: ٣/ ٥٢٥)، وفي قوله تعالى: (كانا يأكلان الطعام) يقول البيضاوي: "يفتقران إليه افتقار الحيوانات، بيّن أولاً أقصى ما لهما من الكمال، ودل على أنه لا يوجب ألوهية، ثم نبه على نقصهما وذكر ما ينافي الربوبية"(البيضاوي: ضمن حاشية الشهاب: ١٩٩٧: ٣/ ٥٢٥، وينظر: أبو السعود، ١٩٩٤: ٦٨/٢). تأمل قول البيضاوي: (ودل على أنه لا يوجب ألوهية)، فإنه من المقاصد المهمة للقرآن.

لقد نهضت المفارقة، في شأن موسى بذلك من أبلغ طريق، إذ أظهرت فيه من النقص في الصبر، ما يثبت بغير شك رسوخه في البشرية، وأنه لا يمكن أن يوصف بأية صفة خارجة عن حدود البشرية العادية، إلا في قضية الوحي ومقتضياتها.

الصورة الثالثة من المفارقة

قوله تعالى: (ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسِفا قال بئسما خلفتموني من بعدي أعجلتم أمر ربكم وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه قال ابن أمّ إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين. قال رب اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين. إن الذين

اتخذوا العجل سينالهم غضبٌ من ربهم وذلة في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين. والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم. ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون) [الأعراف ١٥٠- ١٥٤].

المفارقتان الأولى والثانية: وقد جمعنا الاثنتين معاً، لتداخلهما في الآيات، ولتداخل كلام العلماء فيهما.

ونبدأ متسائلين ما الألواح وماذا فيها، ومن هارون[١]؟ أما الألواح: ف (فيها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون)، وقيل عنها كذلك: (وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء)[الأعراف١٤٥].

وأما هارون، فهو أخو موسى، وهو وزيره (واجعل لي وزيرًا من أهلي. هارون أخي. اشدد به أزري وأشركه في أمري) [طه ٢٩ - ٣٠ - ٣١]. وهارون كذلك "كان أكبر منه "(الخفاجي،١٩٩٧ : ٣٧٦/٤). ففي الألواح إذن كلام الله، وفيها هدى ورحمة، وفيها التفصيل لكل شيء، فهي كتاب ربه كاملاً، وهو يحمله لأول مرة، يحمله كله، ومن هنا يتوقع القارئ ألا تلقى هذه الألواح، لكن ما جاء في القصة خالف ذلك التوقع، فحدثت المفارقة، وألقى موسى الألواح "فتكسرت فرفعت إلا سدسها"(العز بن عبدالسلام، ٢٠١١: ٥٠٧/٢). عرف موسى، أنه ما كان ينبغي أن يفعل ذلك، وأن ما فعله غير لائق. ومن هنا رقّ الرسول صلى الله عليه وسلم له، ورحم حاله، وقال: "يرحم الله أخي موسى، ما المخبَر كالمعاين، لقد أخبره الله بفتنة قومه، فعرف أن ما أخبره ربه حق، وإنه على ذلك لمتمسك بما في يديه، فرجع إلى قومه ورآهم فألقى الألواح "(الواحدي، ١٤٣٠ :٣٦٩/٩). وكان إحساس موسى بهذا وافراً، لذلك قال: (رب اغفر لي) [الأعراف ١٥١]. وقد عبر المفسرون عن هذا وبيّنوا، منهم ابن عطية، حيث يقول: "استغفر موسى من فعله مع أخيه ومن عجلته في إلقاء الألواح"(ابن عطية، ١٩٩٣: ٤٥٨/٢). ويقول أبو حيان الأندلسي: "قالوا واستغفاره لنفسه بسبب فعلته مع أخيه وعجلته في إلقاء الألواح" (أبوحيان، ٢٠١٠ :٣٩٥/٤).

ويقول أيضاً: "وبالجملة فكان في خلق موسى عليه السلام ضيق. وذلك مستقر في غير موضع... وأخذه برأس أخيه ولحيته من الخلق المذكور"(أبوحيان، ٢٠١٠ :٤٥٧/٢). وهذا ما يراه البقاعي أيضاً، وذلك حين يعلق على قول موسى من الآية (اغفر لي ولأخي)، يقول: "ولما دعا بمحو التقصير اتبعه الإكرام. فقال: (وأدخلنا في رحمتك)"(البقاعي، ١٩٩٥: ١١٥/٣). إذن دعا موسى ربه، ليمحو عنه التقصير، في إلقاء الألواح، وأخذه برأس أخيه. ويقول البقاعي أيضًا: "ولما تبين له ما هو اللائق، بمنصب أخيه الشريف، دعا له ولنفسه"(البقاعي، ١٩٩٥: ١١٥/٣)، أي لما (تبين لموسى)، ويفهم من قوله (اللائق)، أن ما فعله موسى بالألواح وبأخيه، لم يكن لائقا بها وبه.

المفارقة الثالثة: نستخلص المفارقة الثالثة، في ضوء الأولى والثانية، فغضبة موسى عليه السلام كانت كبيرة على أخيه هارون، لظنه أنه قد قصر في رعاية قومه، ولم

[١]- لا نقول هذا لنعرّف به بل لنبرز أثر المفارقة.

يبذل جهدًا كافيًا، في منع فتنة بعضهم بالعجل وعبادتهم له. وفي الحق كان هارون، قد بذل ما استطاع، لكن مع ذلك ناله ما ناله من موسى، حيث أخذ "بذؤابة أخيه، وشعره بيده اليمنى، ولحيته بيده اليسرى "(الواحدي، ١٤٣٠ : ٣٧٠).

بإزاء هذه العقوبة التي نالت هارون عليه السلام – على غير ذنب كان منه - يتوقع القارئ أن ينال الذين عبدوا العجل - وعلى رأسهم السامري- عقاب أشد وأنكى بكثير. صحيح أنه قد قيل فيهم: (إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة) [الأعراف١٥٢]، وصحيح أن غضب الله عقاب عظيم، إلا أننا - مع ذلك- نلمح في السياق مظاهر أخرى (لغوية)، كأنها تتوجه إلى التخفيف من العقوبة، ولا تريد الصعود بها. ليس لأن الذنب صغير، بل كأنه يراد من هذا التوجه، فتح باب العودة إلى الدين، والرجوع عن الخطأ. من هذه المظاهر اللغوية، (السين) من قوله: (سينالهم)، تأمل معنى الاستقبال هنا، فهم قد عبدوا العجل، والجرم الكبير قد حصل وانتهى، أما العقاب فإنه (سينالهم). فهذه فسحة أعطيت، وفرصة منحت، للتفكير من أجل العودة.

ويؤيد هذا الملحظ، الآية التي تليها، تأمل قوله تعالى: (والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم) [الآية ١٥٣]. هذه الآية، حفية بإشارات التخفيف من لهجة العقاب، حافلة بها، منها:

١ -تأمل قوله (عملوا السيئات)، فعبادة العجل - وهي أعظم ذنب- أصبحت (سيئة)، تأنيساً لقلوبهم، ليعيدوا النظر فيما أقدموا عليه، لعل ذلك يميلهم إلى العودة.

٢ -ثم انظر إلى فتح باب التوبة في قوله: (ثم تابوا)، وتأمل كيف تتجاوب (ثم) هنا مع (السين) في الآية السابقة، و(ثم): تعني التراخي في الزمن والمهلة فيه، وكأن الخطاب يقول: العودة مقبولة وإن جاءت بعد مدة من التفكر، والتوبة ترتجى حتى لمن كان عبد العجل. فباب التوبة مفتوح، لأنه باب لا يغلق، ودرب لا يوصد، وإن تأنى السالكون فيه أحياناً وتباطؤوا.

٣ -ولا ننسى التوكيد بـ (إن) و(اللام) في ختام الآية، فمعنى المغفرة والمرحمة مؤكد وموثق. أرأيت كم يحدو السياق والخطاب من أذنب إلى العودة.

٤ -ثم الختام بـ (غفور رحيم)، صفتان، كل واحدة تفتح القلوب المغلقة، والنفوس المستعصية. والصفتان ختام لآية، بدأت بالحديث عمن أذنب أعظم الذنب، وهو ختام قد يصلح لآية تقدم فيها ذنب لمن آمن، أو قل، قد يفي بحق عبد صالح وقع في مخالفة. أما والذنب هنا عظيم، وختام الآية (لغفور رحيم)، فهذا يعني أن السياق، سياق بسط لأجواء المغفرة والمسامحة، فلا تعنيف في الخطاب، ولا نشر للغة التهديد والوعيد. وكأن في هذا - وبصوت خفي جداً- عتباً آخر على موسى عليه السلام، فيما فعله بأخيه هارون، يهمس قائلاً: إذا كان ربك قد رقق القول لمن عبد العجل، ولطف بهم، أفما كان من الأليق بهارون خطاب ألطف.

واستخراج أجواء المسامحة هنا، وتجاوز الآثام وإن عظمت، ليس ظناً، إنما هو شيء يفيده روح اللغة بأدواتها، كما أن هذه الأجواء، قد صدقتها آيات من

سور أخرى، فالذين عبدوا العجل، قد سامحهم ربهم حقاً، وغفر لهم. جاء في سورة البقرة (وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون. ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون) [البقرة ٥١ – ٥٢].

وظيفة المفارقة

نلمح في هذه المفارقة فائدتين:

١ - الأولى توكيد ما جاء في (الصورة الثانية)، أي لا يزال السياق يود أن يبرز في موسى عليه السلام، أوضح دلائل البشرية، وفي أبسط مظاهرها، فموسى عليه السلام من جهة، بشر مثل كل البشر العاديين، يجري عليه ما يجري عليهم، ويحصل منه ما يحصل من أبسطهم. وفي هذا، إبعاد له، عن أن يسلخ من هذا العالم الأرضي، أو يخرج من هذه الكينونة البشرية، حتى لايصعد به أحدهم إلى كينونة أخرى، ملائكية، أو فوق ملائكية. فتجلي البشرية الطبيعية فيه، وفي لحظات ضعفها، حتما يبعد ذلك.

٢ - إن التفاوت الواضح بين الذنب الكبير المرتكب، ولهجة العقاب الهادئة، ونشر أجواء المسامحة إلى جانبها، فيه درس لنا بأن فتح باب الرجوع هو الأول والأولى، وأن باب الاسترسال مع النفس الغاضبة، ومد اليد بالعقوبة، ربما يكون فيه الندم.

الصورة الرابعة من المفارقة

هذه الصورة هي عرض مختلف للصورة الثالثة، ووجه آخر لها، يقول تعالى: (وما أعجلك عن قومك يا موسى. قال هم أولاء على أثري وعجلتُ إليك رب لترضى. قال فإنّا قد فتنّا قومك من بعدك وأضلهم السامري. فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضبٌ من ربكم فأخلفتم موعدي. قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ولكنّا حُمّلنا أوزاراً من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامري. فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسي. أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولاً ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً. ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فُتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري. قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى. قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلّوا. ألّا تتّبعن أفعصيت أمري. قال يبنؤُمَّ لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي. قال فما خطبك يا سامري. قال بصُرتُ بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سوّلت لي نفسي. قال فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس وإن لك موعداً لن تخلفه وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفاً لنحرّقنّه ثم لننسفنّه في اليم نسفاً) [طه ٨٣ – ٩٧].

المفارقة الأولى: (ما أعجلك عن قومك يا موسى...) هذا خطاب من الله لموسى عليه السلام، قد وصفه فيه بالعجلة، ولقد ثبت الوصف ولزم، بالسؤال عن تبريره.

وكأن موسى لم يكن يتوقع هذا السؤال، وخاصة أن يَرِد عليه "على سبيل الإنكار "(الزمخشري،٢٠٠٣ :٧١٤/١)، ومن هنا جاءت إجابته غير مطابقة؛ لأن وصفه بالعجلة "أذهله عن الجواب المنطبق المرتب على حدود الكلام "؛ لأن قوله تعالى "(وما أعجلك) سؤال عن سبب العجلة فكان الذي ينطبق عليه من الجواب أن

يقال: طلب زيادة رضاك أو الشوق إلى كلامك"(الزمخشري، ٢٠٠٣ :١/٧١٤).

وسبب هذا الأثر البالغ في موسى، علمه أن ما فرط منه في عجلته إلى لقاء ربه، وإنكار الله له، بكلمة الاستفهام، قد ينتج عنه خطب كبير، يعود خطره على قومه، وخاف أن يكون – بتعجله- سبب ذلك الخطر إذا حدث.

المفارقة الثانية: (قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري)، يبدو أن ترتيب الكلام، وهيئة تركيبه نحوياً، يدل على أن ما خاف منه موسى عليه السلام، قد حصل، أي أن إسراعه في مفارقة قومه، قبل الموعد المضروب مع ربه، كان سبباً لوقوع قومه في الاختبار، فابتلاهم الله بالعجل الذي صاغه السامري، فوقع من وقع وضل، وثبت من ثبت على الإيمان.

وهذه مفارقة كبيرة، إذ المعهود أن يكون نبي القوم، حامياً لهم من الابتلاءات والاختبارات، وكان موسى حريصاً على ذلك، كعادة كل نبي، لكن فرط منه هنا، فكان تعجله سبباً لاختبار قومه. (وما أعجلك عن قومك يا موسى. قال هم أولاء على أثري وعجلت إليك لترضى. قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك).

فمجيء (فإنا قد فتنا)، في عقب (وما أعجلك)، فيه دليل على ارتباط هذا بذاك، ارتباط السبب بالنتيجة، لذلك، جعل بعضهم الفاء، في (فإنا) للتعليل، قال الشهاب الخفاجي: "وقيل إنها تعليل لما سبق، أي لا ينبغي البعد عن قومك، فإنهم لحداثة عهدهم بمكان، يحيق فيه مكر الشيطان"(الخفاجي، ١٩٩٧ :٦/٣٨٠). وكان البقاعي، قبل الشهاب الخفاجي، قد ذكر ذلك صراحة: "(قال) الرب سبحانه: (فإنا)، أي قد تسبب عن عجلتك عنهم، أنا (قد فتنا)، أي خالطنا بعظمتنا مخالطة مميلة محيلة (قومك) بتعجلك"(البقاعي، ١٩٩٥ ٥/٣٦).

وكان الزمخشري قد بيّن جانب الخطر، في سبق موسى لموعد ربه فأحسن بيانه، حيث أوضح أن موسى تقدم قومه إلى لقاء ربه، قبل الموعد المضروب "شوقا إلى كلام ربه، وتنجز ما وعد به، بناء على اجتهاده، وظنه أن ذلك أقرب إلى رضا الله تعالى. وزلّ عنه أنه عز وجلّ ما وقّت أفعاله، إلا نظراً إلى دواعي الحكمة، وعلما بالمصالح، بكل وقت"(الزمخشري، ٢٠٠٣ :١/٧١٣).

المفارقة الثالثة: (قال ما منعك يا هارون إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعن أفعصيت أمري)

كان المتوقع من موسى، أن يبادر أولاً إلى السامري، الذي أضلّ قومه، لا سيما أن ربه قد قال، قبل حديثه مع أخيه هارون: (فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري) و(قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ولكنا حملنا أوزاراً من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامري)، هذا كلام الله لموسى، وكلام قومه له، يقال له: إن (السامري) هو الذي أضل القوم، وهو الذي فتنهم، فيدعه ويذهب إلى أخيه هارون.

وفي هذا - كما يبدو لنا- حكمة بالغة، من موسى عليه السلام، نرجئها إلى حين، لنذكرها في (وظيفة المفارقة).

المفارقة الرابعة: (قال فما خطبك يا سامري. قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لي نفسي).

ينتظر القارئ من موسى أن يعنّف السامري أيما تعنيف، وربما يتوقع أن يفعل موسى به، أكثر بكثير مما فعله بهارون، أو ربما يتوقع أن ينزل به ما أنزله بالقبطي، (فوكزه موسى فقضى عليه)[القصص ١٥].

ويزيد من هذا التوقع أن السامري - لما سأله موسى، عما فعله بقومه، من الفتنة العظيمة- لم ينكر فعلته، ولا اعتل بعلة تخفف من وقعها، بل واجه موسى بلهجة، فيها كل ما يغضب الحليم، ويستدعي العنف من الرحيم، وأجابه بكلام فيه كل أمارات التحدي (بصرت بما لم يبصروا به). ينسب نفسه إلى البصيرة، وفي ضمن هذا نسبة موسى ومن معه إلى الضلال عن البصيرة الحقة. ثم (وكذلك سوَّلت لي نفسي)، أي أمضيت ما رأيت، ولست أبالي بأحد.

وبعد كل هذا، لم يأخذ موسى برأس السامري، ولا بلحيته ولا وكزه ولا قضى عليه، ولا أي شيء مما ينتمي إلى هذا الباب، بل قال له: (فاذهب....).

سعة صدر عجيبة، وهدوء نفس، وسكون أعضاء.كل ذلك لا ينتظره القارئ، لما خبره من طبع موسى عليه السلام، و"كان موسى صلوات الله عليه، رجلا حديداً، مجبولاً على الحدة والخشونة، والتصلب في كل شيء""(الزمخشري،٢٠٠٣ :٧١٥/١، وينظر: أبو السعود، ١٩٩٤ :٣٨/٦). أحسب أن هذا التعميم من الزمخشري، غير صائب، إذ كان الأوفق له أن يستثني. وإلا فأين حدته وخشونته مع السامري؟ ألم يكن هو الذي فتن قومه؟ ولو كان الأمر كما قال الزمخشري، لفتك موسى عليه السلام بالسامري، بضربة واحدة، لكنه بقي ثابت الجنان، موفور الحلم.

وفي هذا الحلم - والمفارقة فيه ذات توتر عال جداً- حكمة أخرى، وعبرة جديدة، ودرس قيّم، نذكره في وظيفة المفارقة.

والزمخشري، وإن كان يرى أنّ عقوبة السامري عظيمة، وأنه "لا شيء أطم منها وأوحش" (الزمخشري،٢٠٠٣ :٧١٦/١) إلا أنه - وكما هو بيّن- لا يتحدث عن لحظة الحدث، وما كان يحضر موسى من الغضب لله إذا خولف دينه، فالزمخشري يتحدث عن العقوبة المؤجلة عن لحظة الحوار بين موسى والسامري، ولا يتحدث عن العقوبة الآنية العاجلة، كالتي نال منها هارون ما ناله، فما قاله موسى للسامري بقوله (فاذهب)، هو عقوبة الله له، ومن هنا يقول أبو السعود في بيانه للعقوبة التي نالت السامري: "ذلك أنه تعالى رماه بداء عقام، لا يكاد يمس أحداً أو يمسه أحد، كائناً من كان، إلا حما من ساعته حمى شديدة، فتحامى الناس وتحاموه"(أبو السعود، ١٩٩٤ :٣٩/٦).

أما العقوبة الآنية، كالتي حضرت نفس موسى عليه السلام، لما واجه أخاه هارون، فإن شيئاً من ذلك لم يحصل من موسى تجاه السامري.

فالمفارقة إذن ثابتة، بالرغم مما قاله الزمخشري، لأن أية مقارنة، بين التصرفين أو الموقفين، يكشف هذه المفارقة.

وظيفة المفارقة

١ -نجد في المفارقتين الأولى والثانية، استمراراً لترسيخ صفة البشرية، في شخص موسى عليه السلام، وقد مضى مثل هذا في الصور المتقدمة.

٢ - أما المفارقة الثالثة، وفيها أن موسى قد علم بخبر ربه، أن السامري هو من فتن قومه، لكنه ذهب إلى أخيه هارون، وبادره بالسؤال والتحقيق في الأمر. وهذا ليس رداً لخبر ربه، فهو قد صدق نبأ ربه في مسؤولية السامري عن الجرم. ولكن مسؤولية السامري، لا تمنع أبداً، أن يكون هناك تقصير من جانب المؤمنين، ومن أعوان موسى ووزرائه.

وفي ذهابه إلى أخيه أولاً، درس بالغ منه - عليه السلام- لنا، وفائدة عظيمة عملية؛ لأن من عادة كثير من المجتمعات - ونحن منها- أن تبحث عن مسببات مصائبها عند الآخرين، وتنسب مشاكلها إليهم، وترمي أخطاءها عليهم. وهم في الوقت نفسه، يذهلون عن دواخلهم، فلا يتعهدونها بالتصحيح والتصويب. ومن هنا فإن مشاكلهم تستمر، ومصائبهم تكبر وتدوم، مهما تغير العالم من حولهم.

أما موسى عليه السلام، فإنه يرينا هنا منهجاً جديداً قويماً، يقتضي منا البحث في أنفسنا أولاً. بل أكثر من هذا، إنه يعلمنا أن نبدأ بالصالحين منا لنسائلهم، بل نبدأ بالأصلح فنتحقق من عمله، ونكشف عن أحواله. فالمشكلة قد تكون فيه، وحضور البلاء ربما كان بتقصير منه. وصلاح الصالح وتقواه، لا يجعله بمنجاة مما تقدم. ومن هنا بدأ موسى عليه السلام البحث عن المشكلة عند أخيه.

وفي هذا درس آخر، لأنه إذا تم إصلاح الداخل، هانت وخفت كل المشاكل التي تأتي من الخارج. وربما كان أخطر شيء على النفس، هي النفس ذاتها، وأفتك شيء بالمجتمع، هو أخطاء المتجمع نفسه.

وأعظم بلاء وأطمه، أن نخطئ مكان التشخيص، فلا نتحقق من أنفسنا وذواتنا، ونتهم الآخرين بأنهم سبب مشكلاتنا، وأنهم لو تغيروا، أو غيروا طريقتهم في التعامل معنا، سلمت مجتمعاتنا، وحُلّت مشاكلنا، وانتهت مصائبنا.

يبين لنا موسى عليه السلام بهذه (المفارقة)، أن هذا طريق خاطئ، وأن المنهج السليم، هو البحث في الداخل، والتحقق منه أولاً، حتى وإن كنا على يقين، بأن الخارج فيه كثير من أسباب مشاكلنا ومصائبنا.

٣ - أما المفارقة الرابعة، وكان فيها، أن موسى عليه السلام - على خلاف المتوقع- لم يعنّف السامري، مع إصراره على موقفه واتهامه لموسى ومن معه، وبلهجة فيها كل الاستفزاز.

نلمح في هذا التصرف اللّين مع المخالفين، بداية لفتح باب العودة، ودعوة لبدء التفكير في الموقف الذي اتُخذ. في حين أن العنف والقسوة في مثل هذه المواقف، يحمل المخالف على التمادي في الخطأ والإصرار عليه.

وفي العنف أيضاً إرضاء لشهوة النفس الغاضبة، وإمضاء لرغبتها الخاصة، ومتى كانت شهوة النفس تجلب المصلحة؟

ولعل (اللين)، الذي واجه به موسى (السامري)، شيء طبعه الله في لسانه، وأودعه في قلبه، في مثل هذه المواقف. نلمح صدى ذلك، في قوله تعالى، مخاطباً موسى وهارون: (اذهبا إلى فرعون إنه طغى. فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى) [طه ٤٣ – ٤٤].

إذن فالقول اللين، قد يفتح باب التذكر، ويثني المخالف ليعود، حتى ولو كان قلبه كقلب فرعون. فحق

لموسى إذن، أن يتصرف بلين مع السامري، فيفارق الشدة ويخالف الحدة، ويقول له: (فاذهب).

وبعد فلا تستطيع أن تمنع نفسك، من أن تتذكر بـ (فاذهب) من قول موسى عليه السلام، قول محمد عليه الصلاة والسلام: (اذهبوا). من قوله: (اذهبوا فأنتم الطلقاء) (ابن كثير، ٢٠٠٦: ٣٠٥/٢).

وتتذكر بسعة الصدر، وراحة النفس التي تنشرها عليك (اذهبوا)، سعة الصدر وراحة النفس، التي في (فاذهب)، ثم تضيء لك من بعيد قولة موسى: (فاذهب)، لتكشف نور الرحمة، في عبارة محمد صلى الله عليه وسلم: (فاذهبوا).

وهكذا، فإنه ليست تتفق أفكار الأنبياء وأخلاقهم فحسب، بل تتفق كذلك عباراتهم. فموسى رسول الله ومحمد رسول الله، صلوات الله عليهما وسلامه. وهما يقتبسان من مشكاة واحدة، وينهلان من معين واحد. وهما بابان واسعان من أبواب الرحمة، يرفقون بالمخطئين، حتى لو كانوا ممن عبدوا العجل، أو كانوا من مشركي قريش، ممن آذوا الرسول وأخرجوه من دياره.

وكم عاد ممن عبدوا العجل؟ كثرٌ ولا شك، ورد ذلك في الآيات، مما مر من سورة البقرة، وكم دخل في الإسلام بعد قول الرسول (اذهبوا)؟ دخلوا أفواجاً في دين الله.

أما اتباع شهوة الغضب وإنفاذها، فهو الأسهل والأشهى لدى النفس. والصبر أمام هذه الشهوة، وإيقاف جموح ثورتها هو الأصعب والأشد.

وهنا فحسب، تظهر لنا صفة موسى الحقة، ونفهم ما وصفه به الزمخشري وأبو السعود، بأنه (كان رجلاً حديداً)، نفهم هذه الصفة على حقيقتها، وبتمام معناها، (فالرجل الحديد)، هو أيضاً ذلك الذي يرد لهيب غضبه، ويطفئ نارها. وموسى عليه السلام فعل ذلك بكل حدة وشدة. ولعل هذا يذكرنا كذلك، بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم "ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب"(ابن حجر العسقلاني، ٢٠٠٤: ٥٨٤/١٠).

الخاتمة

- غدت (المفارقة) وسيلة أساسية، لكشف المعاني المستكنة في النفوس، وسبراً لأغوار المرء، حيث أظهرت لنا دفائن أحاسيسه، واتخذت أداة غوص، تستجلي ما في أعماقه، فأطلعتنا على سجيته الخالصة من غير تحوير ولاتزويق، وأرتنا مرآته الداخلية في صفائها الشفاف الأول دونما تزوير أو تنميق. بدا ذلك أكثر ما بدا مع موسى عليه السلام.

- ومع المفارقة الممتدة، التي تتقابل بها الأشياء في صور متكاملة ومشاهد مركبة، تحولت بعض المعاني في بعض الآيات، إلى مرايا لمعان أخرى مقدرة وأحداث مصورة، كان يتوقعها القارئ. وبالتجاذب بين الطرفين، تردد القارئ بين الحدثين، وتنقّلت عينه بين المشهدين، فتراءت لنا بذلك تلك المعاني والإيحاءات كلها.

- كما هيأت لنا (المفارقة) النظر إلى جهات من الآيات، كان يصعب النظر إليها من دونها. وإذا توافرت زاوية نظر جديدة فإنه - على الأقل- تتهيأ لنا نافذة على معان جديدة.

- وتبين لنا أن المفارقة الممتدة تفتح آفاقاً أرحب للنص وتتيح تأمل المعاني بكمالها. وربما كانت أحد الأدوات النافعة للخروج قليلاً من دائرة الوقوف عند الحرف وتأمل الكلمة المفردة والجملة الواحدة، وهو حال أكثر الدراسات التراثية.

- ويستوحى مما تقدم في البحث أن وراء فنون البلاغة الموروثةَ، ضروباً أخرى من الفنون قد ترقى بالكلام في درجات البيان، لأن صلتها بالمعاني ربما كانت أوثق.

المصادر والمراجع:

ابن حجر العسقلاني، أحمد. *فتح الباري بشرح صحيح البخاري*. تح: عبدالعزيز بن باز ومحمد فؤاد عبدالباقي، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٤.

ابن عطية الأندلسي، عبد الحق. *المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز*. تح: عبدالسلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٩٩٣.

ابن كثير، إسماعيل بن عمر. *البداية والنهاية*. تح: أحمد جاد، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٦.

أبو السعود: محمد بن محمد العمادي. *إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم*. دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩٤.

الأندلسي، أبو حيان محمد بن يوسف. *البحر المحيط*. تح: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد عوض، دار الكتب العلمية، ط٣، بيروت، ٢٠١٠.

البقاعي، برهان الدين. *نظم الدرر في تناسب الآيات والسور*. بعناية عبدالرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٩٩٥.

الترمذي، محمد ابن عيسى. صحيح سنن الترمذي، تح: محمد ناصر الدين الألباني، مكتب التربية العربي لدول الخليج، ط١، الرياض، ١٩٨٨.

الخفاجي، شهاب الدين أحمد بن محمد. *حاشية الشهاب*. ضبطه وخرّج آياته وأحاديثه الشيخ عبدالرزاق المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧.

الزمخشري، جار الله. *الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل*. تح: عبدالرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٣.

سليمان، خالد. *المفارقة والأدب*. دار الشروق، ط١، عمّان، ١٩٩٩.

عبدالمولى، أحمد عادل. *بناء المفارقة، دراسة نظرية تطبيقية*، أدب ابن زيدون نموذجاً. مكتبة الآداب، ط١، القاهرة، ٢٠٠٩.

العز بن عبد السلام، عبدالعزيز. *التفسير العظيم*. تح: محمد الشيخ حسين وأصحابه، دار النور المبين، ط١، عمان، ٢٠١١.

كامل، رضا. *بناء المفارقة، شعر المتنبي نموذجاً*. مكتبة الآداب، ط١، القاهرة، ٢٠١٠.

ميوبك، د. سي. *موسوعة المصطلح النقدي، المفارقة وصفاتها*. تر: عبدالواحد لؤلؤة، دار المأمون، بغداد.

النيسابوري، مسلم ابن الحجاج. صحيح مسلم: تح: محمد فؤاد عبدالباقي، المكتبة الإسلامية، ط١، اسطنبول، ١٩٥٥.

الواحدي، علي بن أحمد. *التفسير البسيط*. تح: عبد العزيز بن محمد اليحيى، عمادة البحث العلمي – جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٤٣٠.